قتلته لأغنّي

قصة بقلم غادة السمان

الحان خافتة مجرحة تتسلل الى غرفتي من صالة الفنـــدق .. ويخيل الي ان الاوتار تنتحب بلوعة مبهمة .. لوعة لا يجاريها غير أنـــات الامواج التي تتشبث مستميتة باقدام الصخر امام الفندق . البحر يعول هذه الليلة وكأنما يحمل صرخات اهل جزيرة استفاقوا فجأة ، ورأوا ان النجوم تهاجر من سمائهم لاهثة وراء مركب تائه لملاح ما زال يدور ويدور باحثا عن بندر ..

بودي لو افتديه .. ولكن الليلة ليلة العمر التي سعيت اليهـــا بمواهبي كلها ..

المسرح الكبير يناديني حيث وقفت للمرة الاولى منذ عام ، فتـــاة مغمورة لا يحميها الا دفء ليل زنجي في عيني رجل حبيب ، حبيب الى نفسهـــا .

التفت الى سريري . تقع عيناي على جريدة مفتوحة تتصدر احدى صفحاتها صورة كبيرة ضاحكة لحسناء .. وتنتفض نظراتي بعنف وتعود الى المرآة حيث تقع على الوجه نفسه ، لا تنقصه سوى الضحكة ..

ألا تستطيع الامواج ان تسكت ليلة واحدة فترحم عذابي المبـــهم بصمتها ؟

أنهض عن مرآتي لاغلق النافذة .. تنزلق نظراتي على الصخور .. ما زال الموج يزحف باحثا بلهفة عن اقدامنا الهائمة ، حيث جلسنا منـذ عام نحتفل بنجاحي في اليوم الاول لوقوفي على المسرح .. كنت مذعورة وخائفة تلك الليلة .. لما وقفت امام الناس ، ورأيت الجدران مطليـــة بالعيون النقادة ، أحسست برغبة في الهرب .. كدت انفجر باكية .. ولكنه كان يجلس امامي في الصف الاول وفي عينيه العميقتين دفء ليل زنجي .. وهربت نظراتي من جوانب القاعة ، وتركزت جميعا في الملامح السمر الوسيمة . وكان فيها نداء محذر كأنفاس حسنـاء في أمسيـة صيف .. همساته تهدر في كياني .. صوتك رائع .. ستنجحـين .. سيحبك الجميع ..

وانطلقت اغني له وحده .. أنشد لليل عينيه الزنجي .. وغاص الناس .. ضاعت الجدران والابعاد .. ثمل الصدى .. لم يبق سوانـا في فجر وردي الضياء ..

واستيقظت على تصفيق الجمهور وهتافه .. واكتشفت يومئذ ان التصفيق رائع ولذيذ .. وانني عطشى ونهمة .. وانني اريد المزيد ..

وعدنا الى الفندق والعبارات المتملقة ترضي غروري الذي بدأ يعلن عن نفسه بتمرد وقح .. وقبل ان يأوي كل منا الى غرفته هبطنا الـى الشاطىء وجلسنا عند هذه الصخرة وما زالت خمرة الاعجاب تملـك حواسـي ..

تأرجح صوته الحنون في طيات الامواج قائلا : هل سمعت آراءهم؟.. قالوا ان صوتك مدهش .. لا ينقصك سوى مزيد من الانفعال والرغبـة في التعبير عن شيء ما .. ولكن . دعينا منهم ومن آرائهم .. اريحيني . قولي متى نتزوج ؟ ..

ـ هل يجب ان تفسد علينا سعادتنا كل مرة بمثل هذا الحديث ؟ تعرف انني أحبك ، لكنك لا تجهل رأيي ..

ـ كفى ، لا داعي للبحث في الموضوع ذاته من جديد .. اعتذر اليك عن ضعفي الذي ساقني اليه فرط حبي .. ثقي ان ولعي بك كان يمنعني عن الرحيل ..

ومزقت نجمة متمردة مدارها في ركن عينيه بينما كان يقول بقسوة جريح : لن أعود حتى أكون الرجل الذي تبتغين ..

ولعل ظل أسى تسلل خلال غروري وصبغ وجهي بصفرة شاحبة اذ انه اضاف ثائرا مهدئا : غدا نعود الى دمشق ، وهناك نقرر ما نفعل ..

وغابت يداي في بيادر شعره ، وعربدت النشوة في مسامي بينما كان يسحقني بين ذراعيه وصدره ..

ولما استيقظت في اليوم التالي قالوا انه رحل .. ولما لحقت به الى دمشق قالوا انه رحل بعيدا .. وحيدا .. ليجلب لجيدي العاري الذي يحب اللؤلؤ عقدا من اللؤلؤ ..

* *

ألا تستطيع الامواج ان تسكت ليلة واحدة ؟.. لماذا تظل تردد وتردد الحكاية نفسها منذ وصلت الى هذه المدينة وجدي بدونه .. منذ وقفت الى مرآتي أتزين استعدادا لليلة الفاصلة ؟ ألم تهترىء الحكاية أيتهـا الامواج المتمردة ؟ ..

المسرح ينتظرني ومئات العيون تتكدس في زواياه .. النقاد تجمعوا ليتحققوا الليلة من صحة الضجة التي ثارت حولي .. وهو لم يعد بعد ليجلس في الصف الامامي .. لتهرب نظراتي المرتعدة الى دفء عينيـه الزنجي .. لن يعود ايها البحر .. أفلا تهدأ ..

الباب يقرع . من يناديني ؟ . اجل .. سأسرع .. وأعود الـى مرآتي . أتمم زينتي بآلية ممزقة . وجهي مطلي باتقان كلوحة مخمـل أبيض ، أخطط بالقلم الاسود ما سيدعوه الناس بعيني الساحرتين الصق ما سيسمى باهدابي الناعمة .. شفتاي .. ارسمها بمهـارة عنكبـوت هرم .. خداي .. لم يكونا بحاجة الى الالوان في المرة الاولى .. اثبت شعري برذاذ لزج وأحس بأنني احمل فوق رأسي شعر امرأة ميتة ..

أتناول عقدا مدهشا من اللؤلؤ ويخيل الي انني سأنوء تحت أثقاله.. أحشر جسدي في ثوبي الذي لا يزيد اتساعه عـن اتسـاع جلـدي الا بقليـل ..

تهوي نظراتي على صورة امرأة وقفت امامي في المرآة سيقـول الجميع أنها فاتنة .. لا تنقصها الا الابتسامة .

أزيح شفتي قليلا عن اسناني .. يحتضر بينهما ظل ابتسامة .. الا يمكن ان تصمت حكاياتك الازلية ايها البحر هذه الليلة فقط ؟

كفى أيتها الامواج النادبة .. اعرف ان مركبه قد تاه .. وان دماء الشفق صبغت شراعه .. وبندره .. لشد ما تود لو تفديه .. ولكن ..

الباب يقرع . « لحظة واحدة ايها الرفاق .. لقد انتهيت » ..

لماذا ينظرون الي بهذا الذهول ؟ ..

احدهم يقول : « رائعة ، لكن جمالك لن يكفي الليلة ..

قضيت اياما وانا الحن لك « اغنية الدورة » ..

يجب ان تنشدي بانفعال.. كأنها اغنيتك .. دموعي اضاعت طريقها الى عيني .. أحسها تنهمر الى الداخل .. الى حيث تغرق مع اللحـن المترسب في ذاتي .. واهذي وراءه : سأحاول ..

تحملني سيارة اطاراتها عاصفة تملق ورياء في الدرب الذي وطئناه منذ عام .. (وكانت يدي تتمرغ في دفء يده .. وكنت مغمورة وسعيدة) .. يدي الفارغة تحاول التشبث بشيء ما .. لا ظل سوى ظل الصقيع حولي .. لا همسة سوى قرقعة حطام مركب مهترىء .. ونشيج مـلاح

ممزق .. وبندر لن تجيب هذه المرة .. بندر لن تجيب ،

انوار المسرح تنسكب على وجهي شلالات لهب جهنمية وانا أصعد الدرجات الرخامية حيث استندت الى ذراعه ذات مرة وغمرني اطمئنان عجيب .. عشرات الاذرع تمتد الان لتسندني .. أتناول اقربها لاستعيض بها عن مظلتي ..

دفء القاعة يغمرني مع أكداس من المديح تزهق انفاسي .. رجال كثيرون يلتفون حولي ..

ـ أقدم لك الناقد .. الاستاذ .. أقدم لك ..

يدي تصافح بآلية بلهاء .. وانا غريبة بدونه .. ضائعة بدونه .. الاشياء قد فقدت لونها ونيران المجد تلسعني ببرودة كاوية .. وانا طفلة وحيدة في مدينة انقلب كل من فيها الى تماثيل اسطورية نحاسية .

ذعر مفاجيء يلهث في قسماتي وانا أصعد المسرح الخشبي .. ماذا افعل هنا ؟

المساحيق ثقيلة على خدي . الاهداب الاصطناعية تكاد تقفز من مكانها وتنتزع معها عيني . اريد ان أهرب ان أضيع في سهوب بنفسجية يتوسطها بيت صغير دافيء ومركب لم تذق اخشابه طعم الماء المالح ، وقد استند الى أحد جدران الدار بينما يلهو طفل وديع بشراعه ..

وانلفت مستنجدة باحثة عن عينين ليلهما زنجي ، فلا أجد احدا..

أصعد اول درجة من درجات المسرح ومنشار أسى وخاز ينبت في صدري .. أصعد الدرجة الثانية .. الثالثة .. فات الاوان .. اصعدي يا حمقاء .. أهوى الصعود ..

أقف تحت الضوء الملتهب المسلط .. نحيب الامواج يضيع في دوامة التصفيق . عباب ضبابية تبتلع عينين ليلهما زنجي .. ولا يبقى سواي .. فراشة تهوى احراق اجنحتها وتهوى تصفيق الناس لرائحة الحريق ..

شذى محيطات زرق سحيقة يتدفق حولي مع المقدمة الموسيقية التي تعلو .. العيون النقادة تطلي جوانب القاعة .. تغمرني ظلال خوف قديم .. انظر الى حيث كان ذات مرة ولا أجد ليل عينيه الزنجي .. لقد مضى .. مضى ..

اللحن قد هدأ وكلهم في انتظاري .. يجب ان اغني .. لا أستطيع ..

انا تمثال ملون صامت . عروس من الورق المقوى . صوتي ضائع . لم أعد استطيع الغناء ! ! .

الموسيقى تعيد اللحن من جديد . غمغمة خافتة بدأت تسري في القاعة . وهو يسيطر فجأة على حواسي كلها .. يجب ان أجده .. يجب ان افتديه . سأناديه بأغنيتي الرمادية .. سابحث عنه ..

أترك لهم ثوبي المحشو بجسدي ، وراسي المستند اليهما على المسرح .. وانطلق .. أهبط دون أن يبدو أن أحدا قد رآني .. أقف بين الجمهور وانظر الى الجسد المنتصب امامهم واشعر انه مضحك مضحك .. كيف استطعت ان الونه وارسمه هكذا ؟ .

أتحسس وجهي العاري الذي غسلته نجوم غابة عذراء ، واحدق في الطين المحشو بين اصابع قدمي العاريتين ، واشم عبق الاعشاب الندية من صدري . أشعر بارتياح مدهش .. واشعر بشماتة وحشية مؤلمة وانا اراها هناك على المسرح .. دمية من الورق المقوى ، صوتها حبيس في اعماقي ..

اما انا فانني .. أموت اذا لم أغن . أنشد بحرقة واناديه وانا أنسل من القاعة .

والتفت ورائي قبل ان امضي ، واراها هناك على المسرح تفتح فمها، وتغلقه ، والحاني الذبيحة تخرج من خلاله بينما الناس يتمايلون ويتأوهون ويطربون ..

أصفق الباب ورائي وانطلق الى البحر .. الى حيث الصخرة امام الفندق وانا انشد وانشد عمري المتعب في الحان داكنة هوجاء واجده هناك .. اقترب منه .. أضيع في رمال صدره السحرية .. واهوي غجرية تنشج ويضمني اليه وهو يقول : « سأبني لك دارا من الاصداف، في كل صدفة تضيء لؤلؤة ».

واجيبه وانا ادمدم :« اريد عقدا من اللؤلؤ » ..

ويظل يضمني اكثر واكثر .. يغمرني حذر عجيب وسعادة بغيضة كسول .. الاطمئنان يطفيء جوعي الى المجهول .. السلام يبعثر لهفتي وحنيني الى قمر لم يولد بعد .. نشيدي يحتضر .. وأتوتر على سعادتي معه .. يجب ان أظل ممزقة معذبة كي أغني .. وانا غجرية تموت اذا لم تغن ...

يقترب منا سرطان تضيء عيناه الحمراوان وقد استرخى بين راسيه خنجر ذهبي مقبضه ذو درجات تشبه درجات مسرح .. أتناول الخنجر وأغمده في صدر حبيبي ببساطة بريئة تنوي قسوة ساعديه حولي بينما انا أتمزق بلذة . انشد بلوعة وحماسة . يكاد صوتي يضيع في تصفيق حاد مبهم المصدر . أبحث عن مركب لارمي بحبيبي ريثما افتديه ذات دهر .. ولا اجد البحر ! .. وابكي فجأة بلوعة أخرس تسحقه صخرة مدببة الحواف .. أحمل حبيبي بين يدي ببساطة وأرفعه عاليا وأهيم.. أضيع به بين الرمال وقدماي المتعبتان ترسمان حفرا تفور فيها ضفادع شامتة تنقنق صائحة : « لقد انتحرت الامواج وجف البحر » ..

ولا أيأس ..

واظل احمله باكية منشدة وانا أدور بها سواحل وسواحل .. وانا أصعد جبالا فولاذية الاشواك .. وانا اركع في فحاريب دامية الغروب .. وانا أهبط به وديانا عذراء الخضرة .. وانا أضيع به في غابات همجية الاغصان .. وانا « بندر » التائبة اود لو افتديه .. واجد الرمل والساحل ولا اجد البحر . واسمع نقيق الامواج عاتيا واشم ملوحة الماء ولا اجد البحر .

واطارد الشمس علي اجد البحر حيث تستحم كل ليلة .. ولا اجده ! !

وتنوح الاصداف بين الرمال .. ! تبكي لآليء ادوسها ولا اعي .. يرجمني الاطفال بالحصى وهم يبكون لانني قتلت البحر ولم يعد بوسعهم بناء قصورهم الرملية على الساحل ..

واعدو مذعورة .. احاول ان اخفي وجهي في صدر حبيبي .. "كتشف انه اختفى .. قطرات الماء تتفجر من السماء .. تصرخ قطراتها: لقد اضعته .. لقد ذهب » ..

وادور بين الاعشاب الموحلة ، وأتخبط واهوي وازحف واتلوى في برك الطين .. ولا اجده ! .

التفي برجل يسألني : لماذا تغنين ؟

ـ انا لا أعرف سوى الغناء !

ـ ومن تنادين ؟

ـ انادي حبيبي الذي صار زنبقة في غدير ابدي المساء ، او طيرا

هذا الشهر

نجـوم لا تحصى

مجموعة قصصية جديدة بقلم :

فاضل السباعي

شفافا عجيب الالوان في سماء ما ..

ويسخر مني الرجل ويقول : اذهبي فاهل المدينة الشمعية ينتظرونك ..

واجد في مدخل المدينة كهفا اركض الى احدى زواياه وأصلب نفسي عروسا من الورق المقوى ..

ويأتي ملك المدينة تحيط به نسوة من الجعد فاسأله : « هل تعرف اين هرب البحر ؟ » ..

ـ « لقد رحل مع حبيبك وتركا لك لؤلؤ العالم أجمع .. صوتك جميل أيتها الباكية » ..

يشير بأصبعه فتقترب مني نسوة جميلات لكنهن خرس فيزينني في ركن الكهف حيث صلبت نفسي عروسا من الورق المقوى بينما أهل المدينة الشمعية يصفقون .. يصفقون .. يصفقون .. ونشيدي يهدأ وكلهم يصفق !! .

استيقظ من غيبوبتي .. أجد انني ما زلت هنا فوق المسرح تحت الاضواء المحرقة والهتاف يدوي من كل جانب .. رائعة .. أغنية « باندورة » تستحق المجد .. تعبر عن اليأس بصورة مدهشة . واضيع في دوامة التصفيق وانا أحس أن الايدي تصفعني .. وانني أكاد اهوي الى الارض .. يد تسندني وانا أهبط من المسرح .. « ابتسمي » ..

وأبتسم . وأشكر .. وامضي مع الرفاق .. واخرج والضجيج ينهشني . الشعر الميت الملتصق برأسي يستحيل الى ثعابين مسمومة تنسل ببطء الى اعماق دماغي لتختلط بأعصابي في ضفائر من عذاب ..

ـ بقي حفل التكريم ..

حفل التكريم ! .. ولكن ابتساماتي انتهت الليلة .. ولكنه سيصل الى دمشق بعد قليل .. لم أعد استطيع .. يجب ان أهرب .. ان أهرب ..

أصل الى الفندق لاهثة .. ادخل الغرفة وأغلق الباب بالمفتاح . أريد ان أنفصل عن العالم . عن التصفيق . عن كل شيء ..

أين الامواج يلطم بعنف هوات أعماقي الدامية. لا فائدة من الانكار. النجوم تصطدم ساخرة من ابعادها المرسومة ، وعاصفة مبهمة تعول في الخواء .. وانا أقف في الظلمة دون ان اجرؤ على اشعال النور ورؤية وجهي في المرآة .. اخاف من الوحشية المتمدنة في رسومه ..

شعاع قمر يرتعد خلال زجاج النافذة التي أرى انها تضيق .. تضيق .. ما كان في العالم قط نافذة اكثر ضيقا ولا قمر أشد بردا من هذه النافذة وقمرها الهزيل ..

اسمع من بعيد اثنتي عشرة دقة جنائزية لساعة حديدية المغارب . أحس ان الدقات تنغرس في لحمي بوحشية كاوية . اقترب من النافذة لاغلق زجاجها . أراه هناك فوق الصخرة حيث جلسنا منذ عام .. يرتعد تحت لسعات القمر !! .

أغلق النافذة بحدة واهوي الى فراشي وانا انشج بلوعة دامية ، فقد كنت أعلم تماما ان في هذه الساعة بالذات تصل الى مطار دمشق طائرة قادمة من بلد بعيد بعيد .. تترنح في ظلمة المطار ثم يهبط منها كثير من الرجال بعضهم يتأبط ذراع حبيبته الدافىء .. حتى اذا ما ابتلعهم مطعم المطار ، صعد رجلان كئيبان تفوح منهما رائحة سجائر رديئة الى الطائرة ، وهبطا بتابوت خشبي من جوفها .. تابوت يضم عيني شاعر ذهبتا تبحثان عن عقد من اللؤلؤ للحبيبة الطموح ، وعادتا وقد برد ليلهما الزنجي ..

ولكنني لم أفقده .. فات الاوان وجف البحر قبل ان افتديه .. لم أستطع حتى استقبال جثمانه فقد عاد ليلة حفلتي الكبرى .. أغرس اسناني في الوسادة . الدموع تهوي في صمت عجيب وتغسل عشرات الاصبغة عن وجهي .. تسقط اهدابي الاصطناعية على الوسادة وأحسها تتلوى تحت خدي عناكب موحشة لزجة السيقان .

غادة السمان

صدر حديثا عن دار الاداب

غادة السمان

في

مجموعتها القصصية

عيناك قدري

■ « غادة السمان رائعة رائعة ، باسلوبها وجوها . واني أتمنى لها مستقبلا رائعا » .

توفيق يوسف عواد

■ « غادة موهبة لفحتها عاصفة الحياة ، فصدعت واستعرت تنشد السر وتنتجع الرؤى، تقطف من لهيب الاعصار وتركض وراء السراب. فكر رأى وذاق ، ذاق النبع الاصيل نبع الحياة ، فكان من اصدق الصيحات في ادبنا العربي الحديث ، وقلم تنطق الحياة الصادقة فيه، فلا يعرف الزيف اليه سبيلا . »

عبدالله عبد الدائم

■ « فكر جريء وقلم مجدد ، وبداية تبشر بمستقبل خصب في فن القصة العربية ، ان غادة السمان تقوض الاطر التقليدية وتشق طريقها في الحياة لتسلك درب الابداع والخلود . »

نور الدين حاطوم

■ «لا استطيع الا ان اتوقع من هذه الكاتبة غزوات ضخمة في دنيا الادب ، وانا لا اتصور ان تقديمها بهذه القوة سيملأها بالغرور . »

موسى صبري

■ « اتوسم في قلم غادة طاقة جديرة بالالتفات ، فهو حتما ليس من تلك الاقلام الانثوية التي تبيع وتشترى في سوق التهريج » .

سميرة عزام